(جدليّة الديني والسياسي في السيرة النبوية)

-دراسة في كتاب "مسيرة محمد في المدينة و انتصار الإسلام" لهشام جعيط-

أ/ :محمّد علاقي

كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة

جامعة سوسة/ تونس

ملخّص:

لم تكن المدينة قبل هجرة أو تهجير النّبي على وفاق، بل كانت لا تزال تحمل ذكرى حروبها وفقدان عدد كبير من قادتها، خاصّة صراع قبيلتي الأوس والخزرج. وعليه يرى جعيّط أنّ مهمّة النّبي محمّد لن تكون بالسهلة حتى يفرض وجوده بينهم. وفعلا قد استطاع النبيّ أن يفرض مكانته من خلال حنكته السياسيّة بأن سارع ببناء المسجد النبويّ فكان مكانا للعبادة ومكانا تكتب فيه الرسائل وفيه يبيت من ليس له مأوى. وتأتي أهمية **صحيفة المدينة** التي تعدّ مرحلة أكثر اكتمالًا وترسيخًا لوضع النبي في المدينة من البيعة-بيعة العقبة- السابقة على الهجرة. هذه الصحيفة تمثل -وفقًا لجعيّط- مشكلة للمؤرخ، فتطرح عليه مسائل يصعب التخلّص منها، وهو ما جعل صحتها وزمن كتابتها مثار خلاف بين المستشرقين.

وتدريجيّا استطاع أن يكون الحكم بين الأوس والخزرج وفعلا قد أنهى صراعهم الّذي دار لسنوات طويلة. ويرى جعيّط أنّ كلّ من يعتقد أنّ النبيّ كانت له طموحات سياسيّة أو أن يصبح رمزا من رموز القوّة والمجد هو قول لا أساس له من الصحّة. فبفضل دعم العناية الإلهية له استطاع أن ينجح في توجيه سراياه والفوز في غزواته إلى أن أعاد فتح مكّة.

كلمات مفتاحية: جدليّة، الديني، السياسي ،السيرة النبوية، انتصار الإسلام، هشام جعيط

Abstract:

Before the Hegira and the expatriation of the prophet to it, the Medina had not been in compromise. It had been, rather, bearing the traces of wars and the loss of a big number of its leaders, in the aftermath of the tribal strifes between "Aus" and "Khazraj". Upon that fact, Jaiat holds that the mission of the prophet Mohamed was never that easy to impose his presence among them. Yet, thanks to his political skillfulness, the prophet was able to get his place there through hastening to build "Masjid al Nabawi". The latter became a site of worship, a place where to compose messages, and a shelter for those who sought a refuge. Essentially, the importance of "Sahifat al Madina",

which marked a phase of the prophet's bringing to perfection and solid foundation of his state in "Medina", emanated from the pledge of allegiance of "Alakaba" antecedenting the Hegira. Accroding to Jaiat, this pledge constituted a problem for historians. It gave rise to such unavoidable questions as its credibility and the time of its composition – matters which turned into a controversial issue among orientalists.

Gradually, however, the prophet managed to arbitrate between "Aus" and "Khazraj" through bringing the long years of their strife to an end. Therefore, Jaiat opines that whoever thinks that the prophet had political longings or a wish to become an icon of power is wrong. Owing to the divine Providence to him, the prophet succeeded in leading his brigades and winning in his invasions till liberating Mecca again.

تمهيد:

لم يكن جعيط أوّل من كتب في مشروع السيرة النبويّة أو محاولة التجديد فيها، بل ثمّة أصوات قديمة دعت إلى ضرورة مراجعة هذا الإرث وتطويره من خلال كتابة آلاف المجلدات والكتب. لكن سمة هذه المصنّفات أنّها قد حافظت على الطابع التقليديّ والتمجيدي بل وقد جعلت للأسطورة حضورا بارزا إلى درجة يعجز فيها العقل البشري على فهم أشياء لا زالت ملغزة وعصيّة عن الأفهام. لعلّ أبرز هذه الكتب نذكر ما كتبه ابن إسحاق وابن هشام في **السيرة**، مع التذكير أنّ سيرة ابن إسحاق كتبت بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز. أيضا ما كتبه الطبري في **سيرة المصطفى** وكذلك كتاب **سيرة ساكن الحجاز** لرفاعة رافع الطهطاوي. ولا ننسى **السيرة الحلبيّة** الّتي ادّعى فيها صاحبها أنّها كتبت من أجل تنقيّة السيرة من الخوارق، إلاّ أنّنا نجده قد أغرق سيرته بالأسطورة فكان مقلّدا غير مجدّدا. وفي الفترة الحديثة ظهرا دارسون محدثون حاولوا إعادة كتابة السيرة النبويّة وفق رؤية علميّة مستندين إلى المناهج المتاحة في العلوم الإنسانيّة ومعوّلين على الدراسات الأنثربولوجية محاولة منهم لدراسة الشخصيّة المحمّديّة انطلاقا من الفترة الّتي عاش فيها. ولعلّ خير وثيقة كانت سند لكلّ باحث شغوف بمعرفة الحقيقة ولو كانت نسبيّة هو **القرآن**، لأنّه حتى وإن لم يكشف عن كل تفاصيل حياته فإنّه أبان عن أهمّها مثل **نسبه يتمه سفره تهجيره**. ومن أبرز هؤلاء المحدثون على غرار كتاب الباحثة هالة الوردي **الأيام الأخيرة لحياة النّبي**، كذلك كتاب معروف الرصافي **الشخصيّة المحمّديّة أو حلّ اللّغز المقدّس**، ولا ننسى كتابي مونتوغمري وات watt **محمّد في مكّة ومحمّد في المدينة**. كذلك نذكر مشروع المؤرّخ والناقد هشام جعيط وما كتبه في السيرة النبويّة وهي ثلاثيّة تعلّقت الأولى بدراسة نوعيّة الوحي وكيفيّة نزوله على النبيّ، ودرس في كتابه الثاني ظروف مكّة الاقتصاديّة وتركيبتها الاجتماعية وكيفيّة بداية الدعوة بين السريّة والجهر، وصولا إلى القول بهجرة النبيّ أو تهجيره إلى يثرب. وفي كتابه الثالث وهو ختام مشروع الباحث في السيرة النبويّة، والّذي درس فيه حياة النّبي في المدينة وبداية تأسيس -جنين الدولة- إلى حدّ إعادة فتح مكّة. وهو الكتاب الّذي نروم أن ندرسه في هذا المقال.

وصل هشام جعيط في هذا الجزء إلى ختام مشروعه البحثي عن حياة **الشخصية المحمّدية**، ليلقي الضوء على هذه المرحلة التأسيسية في حياة العرب والمسلمين، والّتي تحفل المصادر بمعلومات أوسع

عنها بالمقارنة مع فترة ما قبل البعثة أو الفترة المكية. في هذا الكتاب يتابع جعيط منهجه التأريخي النقدي الصارم، ليفصّل علاقة النبي مع أهل يثرب، وتأسيس الأمّة الجديدة، وما ساور هذا التأسيس من تحدّيات، وخاصّة العلاقة مع اليهود ومع بيت المقدس، ثم التحوّل إلى الكعبة وإعلان ضرورة تحرير البيت العتيق من حكم المشركين، وصولاً إلى الانتصار التاريخي وفتح مكّة وحتى وفاة النبي تاركاً وراءه نواة دولة سيستكملها من بعده الخلفاء.

1-توصيف الكتاب:

صدر كتاب "مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام" لهشام جعيّط عن دار الطليعة-بيروت سنة2015، وهو الجزء الثالث والأخير من سلسلة موسومة بـ"في السيرة النبوية"، وقد صدر الجزء الأول:**الوحي والقرآن والنبوة** سنة2001، وصدر الجزء الثاني تحت عنوان **تاريخية الدعوة المحمدية في مكة** سنة2007 . ومثلما يشير العنوان، فإنّ هذا الجزء الثالث والأخير يدرس **مسيرة محمد في المدينة**. وقد احتوى الكتاب على مدخل وأربعة أبواب تحتوي على أربعة عشر فصلا يأخذ بعضها برقاب بعض حتى غدا التبويب أمرا شكليا لا غير. الباب الأول: "**المنعطف المديني**"، أمّا الباب الثاني فقد عنون ب "**النزاع مع قريش**" وقد عنون الباب الثالث ب "**انتصار الإسلام و انتشاره في غرب الجزيرة العربية**" ليختم كتابه بالباب الرابع والّذي عنونه ب "**مشكلة أسلمة الجزيرة العربية**". هذا من ناحيّة انتضام الأبواب، ليفتتح كتابه **بمدخل تمهيديّ** قدّم فيه لمحتوى الكتاب بشكل مختصر. أمّا فصوله فقد فقد توزّعت كالتالي:

الفصل الأول: مسألة إسلام أهل المدينة(19-28)، الفصل الثاني: المدينة: المجال والرجال(29-53)، الفصل الثالث: إقامة النبي في المدينة(55-69)،الفصل الرابع: العام الحاسم(73-96)، الفصل الخامس ثأر قريش(97-105)، الفصل السادس: داخل المدينة: محمد والمعارضات(107-119)، الفصل السابع: من أحد إلى الخندق، نهاية العام الثالث-نهاية العام الخامس(121-125)، الفصل الثامن: حرب الخندق أو حرب الأحزاب، نهاية العام الخامس(127-136)، الفصل التاسع: إشكالية عامة(139-151)، الفصل العاشر: الحديبية، صلح ديني وفتح سياسي(153-157)،الفصل الحادي عشر: خيبر:تحطيم القوة اليهودية في الحجاز(ص159-166)، الفصل الثاني عشر:استسلام مكة(167-181)، الفصل الثالث عشر: حنين، الطائف وتبوك(183-193)، الفصل الرابع عشر: من جنين دولة في عهد النبي إلى دولة ما بعد النبي(197-210).

2-خروج النبيّ محمّد إلى المدينة: هجرة أم تهجير؟:

ربما ينبغي علينا التذكير أولًا برأي جعيط في الهجرة لأهمية الحدث حتّى نفهم آراءه في "**مسيرة النّبي في المدينة**"، علما أنّ جعيط يرى بأنّ النّبي أُخرج أو طُرد من مكة، وأنّ هذا الإخراج كان قرارًا إراديًا من قريش، وهذا ينفي كون أنّ النّبي قد هاجر عن طواعيّة، ممّا يعني أنّ قريشا لم تسع بعد هذا الإخراج لأيّة محاولة لقتل النّبي أو المضي في تتبّع أثره، وإنّ أيّ حديث في السّيرة عن هذا التتبّع المبالغ فيه هو إسقاط تاريخي من المستقبل على الماضي لا يمكن استساغته، في هذا السياق يرى جعيط أن قصة غار ثور "قصة محبوكة تمامًا"، وأن الآية التي تتحدث عن ثاني اثنين (وهي آية مدنية) هي إدانة لتقاعس المسلمين عن نصرة النبيّ في تبوك عن طريق استرجاع حدث إخراج النبي وبيان كيف تلا هذا الحدث انتصارات عديدة -بأمر الله- والّتي سيكشف عنها جعيط في مرحلة متقدمة من كتابه.

إنّ طمأنة النبّي لأبي بكر -وفقًا لجعيط- لا تتعلّق بخوف من ملاحقة قريش، بل تتعلّق بطمأنته على أنّ الإخراج الذي يمثّل خيبة أمل للدعوة الناشئة ليست هذه نهايته، فالنصر الإلهي والتأييد بالجنود آتٍ لا محالة.

أُخرج النّبي إذا من مكة مُهجّرًا متجهًا صوب مدينة هو فيها غريب ولم تكن قريش تنوي الملاحقة، وهذا حسب رأي جعيّط في باب هجرة النبيّ بين التهجير والإخراج.

3-المنعطف المديني في مسيرة النبيّ محمّد:

لعلّ أهم تساؤل يشغل **الباب الأول** في الكتاب الذي سندرسه والمتعلّق بوضع النّبي في المدينة هو التساؤل حول الطريقة التي تمّ بها تنظيم صراعات المدينة المشتعلة قبل هجرة النّبي، فلم تكن المدينة قبل هجرة النّبي على وفاق، بل كانت لا تزال تحمل ذكرى حروبها وفقدان عدد كبير من قادتها، خاصّة صراع قبيلتي الأوس والخزرج.

ولم يكن من الممكن أن يظلّ وجود النّبي فيها وجود الحاكم الغريب والقاضي المحايد، فتشابك تحالفات القبائل في يثرب خصوصًا تحالف الأوسيين واليهود، كذلك علاقات هؤلاء بمكة، كان يطرح ضرورة تنظيم أكثر تماسكًا ووضوحًا يحفظ الأمن للمدينة وكذا للدعوة الناشئة التي حُكم عليها بالغربة والنفي.

من هنا تأتي أهمية **صحيفة المدينة** التي تعدّ مرحلة أكثر اكتمالًا وترسيخًا لوضع النبي في المدينة من البيعة-بيعة العقبة- السابقة على الهجرة. هذه الصحيفة تمثل -وفقًا لجعيّط- مشكلة للمؤرخ، فتطرح عليه مسائل يصعب التخلّص منها، وهو ما جعل صحتها وزمن كتابتها مثار خلاف بين المستشرقين، فيرى "فلهاوزن felhawzen" بأنّها كتبت قبل بدر في السنة الأولى للهجرة، في حين اعتبرها "كايتاني kaitani " مكتوبة بعد بدر وقبل أحد. ويرى جعيّط هذا الخلاف مفهومًا يبّرره نص الصحيفة نفسها، حيث إنّ بنود الصحيفة وموقع قبائل اليهود فيها وذكر قريش والدفاع عن المدينة ينطوي على إشكال، فذكر قريش -وخصوصا مع فكرة جعيّط- عن عدم نيّتها ملاحقة النّبي يعني أنّ الوثيقة كتبت بعد بدر التي تمثل السبب الكافي لهجوم قرشي محتمل على المدينة، في حين أنّ غياب اهتمام كبير باليهود وقبائلها الكبيرة يكشف عن مرحلة سابقة على بدر لم يكن الاهتمام فيها باليهود سوى اهتمام ديني لا سياسي. من أجل حل هذا، يفترض جعيّط تقسيم الصحيفة إلى قسمين: الأول، كتب في السنة الأولى، والثاني كتب عشيّة أحد، وفيه موقع كبير لقبائل اليهود الكبيرة (يهود أوس مناة، النضير، وقريظة) من أجل المشاركة في تجهيز الدفاع عن المدينة ضد أي هجوم محتمل.

وقد صدّر المؤلف هذا الجزء بمدخل صاغ فيه مقدمتين من مقدماته في كتابة السيرة النبوية، تتعلق أولى هاتين المقدمتين بالرؤية، وفيها ناقش انقلاب الإسلام من مرحلة المسالمة في مكة إلى مرحلة "المسايفة" في المدينة، أو قل انتقال النبوة من نبوة "لدنية محضة، دينية" إلى نبوة "سياسية، حربية، عقلانية". وانتهى إلى الإقرار باجتماع الدورين: الديني والسياسي في شخص النّبي، مع جعل الثاني في خدمة الأول في كل الأحوال، ذلك أنّ مشروع النبي الأساسي هو أسلمة العرب ونشر رسالته. وقد اعتبر جعيط من خلال الحوار الّذي أجريناه معه "إنّ مرحلة حروب النبيّ وحمله للسيف لم تكن بدافع السيطرة وبناء المجد بل كانت من أجل نشر الرسالة وجعلها كونها لأنّ المجتمع الّذي وجد فيه لا يروّض باللّين والمسالمة، بل يفقه لغته، لغة الحرب والسيف[1]".

أمّا ثاني هاتين المقدمتين فتتعلق بالمنهج. وقد صرّح جعيّط بطريقته قائلا:"سأحاول في مجرى الكتاب تحليل وشرح تاريخ النبي، ساعيا إلى جعله مفهوما بالعقل، معوّلا على المصادر مع نقدها في الوقت نفسه نقدا تاريخيا وإخضاعها لقانون الحقيقة الواقعة، مشكّكا في الكثير من تأكيداتها وثوابتها وفق ما يقتضيه عمل المؤرّخ، ولكن ليس فيها كلها، لأنّه سيستند إلى وثيقة هامّة معتبرها هي الأساس قائلا فيها "ويظل القرآن مصدرنا الأول"[2] .

وقد نهض الفصلان الأول والثاني بوظيفة المدخل إلى فهم إقامة محمد في المدينة وفهم ما سيقوم به لاحقا. فقد درس في الفصل الأول "مسألة إسلام أهل المدينة"، وهو إسلام عُدّ بمثابة اللّغز عند الباحثين المعاصرين. وقد قدّم جعيط أسبابا -لا تعدّ كافية في الحقيقة لتبرير اِلتفاف المدنيين حول النبي- منها العداوات السابقة بين أهل المدينة وعشائرها، وتفكك المدينة، ومفاخرة العرب اليهود بالنبي الموعود.

[1] حوار أجراه الباحث محمّد علاقي، مع المفكّر والمؤرّخ هشام جعيط يوم 2016/4/30، **مجلّة علامات، عدد 46**، عن دار الثقافة المغربيّة، الصادرة سنة 2016، ص 8.

[2] –جعيط(هشام)، **مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام**،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت.ط1، 2015، ص15.

ولئن شكّك المؤلف في رواية السيرة حول هبّة أهل المدينة جميعا لاستقبال النبي، وتأكيده على أن بني أوس مناة لم يسلموا حتى السنة الخامسة للهجرة، فإنه انتهى إلى اعتبار ظاهرة وفود محمد إلى المدينة بمثابة زعيم ظاهرة استثنائية[3] ، ثم وصف لاحقا لقاء النبي بالأنصار قائلا:"رجال استثنائيون إزاء رجل استثنائي:إنه لقاء شبه إعجازي"[4].

أمّا الفصل الثاني فخصصه المؤلف لـ"المدينة:المجال والرجال"، وفيه قدّم عرضا شاملا حول مدينة يثرب عشية الهجرة: طبيعتها، مساحتها، عشائرها، اقتصادها، واحاتها، آبارها، نزاعات أهلها وتحالفاتهم، تراتبية المجتمع المديني... مبرزا تمايزها عن مكة. فقد كانت المدينة -على عكس مكة- مدينة زراعية، غير موحدة، متنوعة دينيا، مكتظة بالسكان، منفتحة طوبوغرافيا...

وفي هذه الأثناء بعد دخول يثرب وبعد تجميعه لجيش من الأنصار اعتبر وات watt في كتابه **محمد: النبي ورجل الدولة**[5] أنّ الوضع الاجتماعي للمسلمين الأوائل تشكّل من الشبّان الأقوياء والأشخاص الضعفاء (كلمة ضعيف تعني من دون حماية جيّدة من العشيرة) وليسوا من العوام أو أعضاء الطبقات الدُنيا، كما تشير بعض المصادر. ما يعني أنّ الحركة الإسلامية التي كونها النبيّ كقوّة حربيّة كانت حركة شبابية وافدة من طبقة اجتماعيّة تلي مباشرة الطبقة الرفيعة التي تشكلت مع الازدهار التجاري المتنامي الذي عرفته مكة.

ويلفت الباحث الألماني تيودور نولدكه إلى أنّ من تبعوا الرسول وهاجروا معه إلى المدينة لم يكونوا كلهم أناس ضعفاء وفقراء محتاجين بل فيهم من الأعيان والوجهاء فيقول: ""ولو أنّه كان دجّالا وحسب، فكيف انظمّ إليه رجال مسلمون كثر كرام، عقلاء، وعلى رأسهم صديقاه الأقربان أبو بكر وعمر، مؤازرين إيّاه بأمانة في السرّاء والضرّاء... وأنّهم كانوا رجالا من عائلات عاليّة القدر متربّين على كلّ ما كان يحوزه العربي الأرستقراطي من كبرياء النسب، فانظموا بسبب حماسهم للنبيّ وتعاليمه"[6].

ومن خلال قراءتنا لكتاب جعيط وقفنا على فروق بيّنة بين مكّة والمدينة من الناحية الاقتصاديّة والصناعيّة، ونلاحظ حول هذا العرض أمرين: يتعلق **الأوّل** بالإلحاح على افتقار المدينة إلى مركز ديني وإلى نواة حكم سياسي، ويتعلق الأمر الثاني بإهمال اليهود في التعريف بعشائر المدينة وبأنشطتها، بل إنّ جعيط ذهب في هذا الباب إلى حد تصديق الرواية القائلة برغبة زعيم الخزرج قبل مجيء محمد في الاستيلاء على أراضي بني قريظة الغنية جدا، وإلى حد التقليل من أهمية حضورهم في صحيفة المدينة.

إنّ هذا المنحى في التأريخ للمدينة لا يُفهم إلا من خلال الانتباه إلى خطة جعيط في التأليف: إنه بذلك يجد المسوّغات والمبرّرات لعمل النبي اللاحق. فـ"بدون سلطة مركزية كالملإ في مكة، وبدون تآلف سكاني، وبدون وعي جماعي، ما كان يمكن أن يكون (في يثرب) سوى الخوف والحذر الذين يسمّمان حياة المدينة، وهذا هو مصير واحة لا تقوم على رأسها سلطة عليا"[7].

أما بقية الفصول فيمكن تقسيمها –رغم تشابكها-إلى ثلاثة محاور سردية –تحليلية هي: علاقة النبي بمكة، وعلاقة النبي باليهود، وعلاقة النبي بالبدو.

يُعدّ مؤرخ الإسلام المبكر من المؤرخين القلائل الذين طرحوا تجديد مناهج تأريخ السيرة النبوية، فهو يتمتع بالفرادة على مستوى نظرته العلمية النقدية الصارمة إلى المصادر التراثية - القديمة. وظهر ذلك في منهجه الذي لا ينطلق من التأريخ التوثيقي، بل من قراءة الحدث بعين المحقق - المشكّك.

---

[3] -**نفسه**،ص25

[4] -**نفسه**،ص59

[5] وات، **محمد النبي ورجل الدولة**، ترجمة: حمود حمود، دار التكوين، دمشق، 2014.

[6] نولدكه (تيودور)، ***تاريخ القرآن***، تعديل فرديريش شفالي، ترجمة جورج تامر، ط1 بيروت 2004، ص5.

[7] –**نفسه**،ص49.

يستند المفكر التونسي إلى الأنثروبولوجيا التاريخية في مقاربته للمرحلة المدينية التي حولت الإسلام إلى ركيزة لفتح ترابي شمل شبه الجزيرة العربية برمتها دشنت حقبة يثرب الكثيفة بوقائعها التاريخية المعقّدة والتأسيسية، لما يسميه جعيط «النبوة السياسية»، رافضاً مفهوم «النبي المحارب» أو «الإسلام المحارب» الذي اجترحه ماكس فيبر Max weber وآخرون. تبدو مسيرة الرسول في المدينة «مدهشة في جوانب عدة». لم تكن القوّة وحدها المحدّدة لانتصار الإسلام، ونفوذه الجاذب للقبائل الممانعة عشية الدعوة المحمّدية. من هنا تمتّع محمد صلى الله عليه وسلّم بقدرات استثنائية، فهو المفاوض والديبلوماسي، فكان حسب جعيط «النبي الكاريزمي والسياسي».

يدرس المؤلف الإطار التاريخي الذي واكب هجرة النبي وشجّع أصحابه على الهجرة من مكة إلى يثرب (خرج محمد مهجّراً من مكة ولم تكن قريش تنوي ملاحقته). يدرس المراحل التي شهدت دخول الأنصار المستقبلين في الإسلام، والانقسامات القبلية بين الأوس والخزرج وتفاعلهما مع الدين الجديد، وموقف القبائل اليهودية (قينقاع، قُريظة، النضير) من دعوة محمد التي انتهت على إثر صراع عقدي وسياسي إلى تحطيم القوة اليهودية في الحجاز.

يضعنا جعيط في السياق التوصيفي لـ «يثرب» التي ستغدو على حدّ تعبيره «متروبولاً» أي قطبا ومركزا إقتاصديا وسياسيا وعاصمة الإسلام في القرن الهجري الأول، راصداً خريطة القبائل وأنسابها وتوزيعها الجغرافي وتوطن العشائر والقبائل البدوية فيها. مشيرا إلى أنّ روابط الدم قد جمعت بين الأوس والخزرج، من حيث هما قبيلتان وعشائر عدّة، لكن روابط القرابة بالأرحام، كانت موجودة هي الأخرى وبقوّة، عبر النساء، فكنّ جسراً بين القبيلتين الكبرتين. أمّا اليهود فلم يشكلوا سوى جماعة دينية، وانقسموا إلى عشائر، من دون عصبية دم فعلية فيما بينهم ولا مع العرب، على رغم علاقات الجوار الوثيقة مع أوس مناة.

أتاحت النزاعات والحاجة الماسة إلى النظام والسلطة التي شعر بها رؤساء العشائر، للرسول أن يتولى معالجتها، وهذا ما ساهم في تقدم وتطور وانتشار رسالته التوحيدية. يؤكد جعيط أنّ محمداً كان هدفه قبل كل شيء نشر الدعوة وليس البحث عن موقع قيادي - وإن سمح له ذلك بتوطيد رسالته - «ما كانت العبقرية السياسية تعمل إلا في مستوى تدبير الأمور، أما الهدف فكان وسيبقى انتصار الدين الحق[8]».

4-في علاقة النبي بمكة:

لقد خصص جعيط لبيان هذه العلاقة الفصل الرابع: العام الحاسم(معركة بدر)، والفصل الخامس: ثأر قريش(معركة أحد)، والفصل الثامن: حرب الخندق، والفصل العاشر: الحديبية: صلح ديني وفتح سياسي، والفصل الثاني عشر: استسلام مكة، وحتى الفصل الثالث عشر: حنين،الطائف وتبوك. لقد عوّل جعيط في سرد الوقائع المتتالية على مصدريه الرئيسيين: سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام، ومغازي الواقدي. وسعى إلى تعديل بعض تفاصيل هاتين الروايتين دون المس بالمسار التقليدي المعروف للأحداث وهو مسار خطّي، أمّا ميل المؤلف إلى استنطاق بعض الإشارات القرآنية للأحداث فقد اصطدم بإجمال العبارة القرآنية دون تفاصيل جزئيّة.

إنّ ما ينتظم جميع هذه الفصول، أمران: **أمّا الأول** فهو محاولة فهم الانقلاب الذي طرأ على شخص النبي مقارنة بالمرحلة المكية: انقلاب من نبي مبشِّر إلى نبي محارب، وهو انقلاب فسّره جعيط بالقول: "عالمه العربي لا يعرف ولا يفقه سوى ميزان القوى. وعليه كان يجب استعمال وسائل هذا العالم. الواقع هو أنه لن يتم نشر دين الله إلا بهذه الوسائل"[9]، ويقصد التجاءه إلى لغة التصفية والقوّة.

[8] جعيط، **نفسه**، ص 65.

[9] –**نفسه**،ص ص77 ،121.

أما الأمر الثاني: فيتعلق بتأمل حضور البعدين الديني والسياسي في عمل النبي وحروبه، وهو تأمل مال فيه جعيط دوما إلى تغليب البعد الديني حتى وإن بدا البعد السياسي الدنيوي الصرف طاغيا، مثلما هو الحال في صلح الحديبية مثلا[10]، وكذلك أمر فتح مكة[11]. ونلاحظ أنّ جعيط وهو يدرس تلك الأحداث لم يلتزم بما جاء في مقدماته "أن يجعل تاريخ النبي مفهوما بالعقل"، يتجلى ذلك مثلا حين علّق على نهاية معركة أحد بالقول:" قرروا الرجوع إلى ديارهم، وهذا أمر مستغرب جدا من جيش منتصر"[12] ، أو حين علّق على نهاية معركة الخندق بالقول "ولكن على جري العادة، سيطرد الله الكفار مرسلا عليهم ريحا عاتية وجنودا من السماء"[13] وحتما فإنّ هذه النتائج المهمة والّتي هي في علاقات بالماورائيات يأبى العقل البسيط أن يتمثّلها. في حين أنّه يصرّح بقبول فكرة حفر خندق حول المدينة وهو أمر مفهوم من الناحية المنطقيّة بالرغم من أن الأمر يتعلق بأرض طولها 15 كلم وعرضها 4 كلم؟

5-في علاقة النبي باليهود:

يمكن القول إنّ علاقة النبي باليهود شكلت محورا رئيسيا من محاور اهتمام جعيط في هذا الجزء من السيرة النبوية. فهي مبثوثة في جلّ فصول الكتاب، وكادت تستأثر بالفصلين الثامن والحادي عشر. وهو أمر مفهوم تماما بما أنه قد صرح منذ البداية قائلا:"سأدافع في هذا الكتاب عن الفكرة التالية: بما أنّ محمدا قد جُوبه بالرفض اليهودي، فإنه راهن كليا على البعد العربي...من هنا كانت حروبه ضد قريش، وكان أيضا، كما سنرى، الخيار الأساسي للإبراهيمية"[14].

والحقيقة أنّ منزع جعيط في التعامل مع هذه القضية اتسم بمحاولة الوقوف موقفا وسطا بين تثريب المستشرقين على النبي لارتكابه مجازر في حق يهود المدينة، وبين ميل المسلمين القدامى إلى التفاخر بإعمال السيف في رقاب اليهود. وهذا الموقف الوسط قد نحته جعيط من خلال الملامح التالية:

- اعتبار الوجود اليهودي في المدينة "شوكة في القدم" لا بد من اقتلاعها، في سبيل توحيد المدينة وتحويلها إلى أمّة. علما وأنّ ذلك كان من إكراهات التاريخ بالنسبة إلى اليهود الّذين وقع اجلاءهم.

-التقليل من أهمية العهد المبذول في صحيفة المدينة لليهود، وقد ذهب جعيط إلى عدّ بنود الصحيفة قائمة على التمييز بين أمّة المسلمين وأمّة اليهود، رغم أن نص الصحيفة يعتبر اليهود"أمة مع المؤمنين".

-التلطيف من بشاعة المصير الذي ناله بعضهم، والتقليل من عدد المقتولين من بني قريظة مثلا(النزول بالعدد من 600 رجل إلى 100 رجل)، وتبرير الاغتيالات في صفوفهم بل إنه يبرّر مصير بني قريظة بجرم هو "نية الخيانة"، يقول:"في الواقع، كان بنو قريظة قد نقضوا العهد، إذ انضموا إلى الأحزاب، لكنهم لم يتحركوا بل ظلوا قابعين في حصونهم"[15]؟؟

يبدو لنا من خلال تأمل دراسة جعيط للعلاقة بين النبي واليهود أنّ النزعة التبريرية والدفاعية قد غلبت على النظرة العقلانية وعلى مطلب الحياد المطلوب في عمل المؤرخ. ولا نظن أنّ إحالة المؤلف على حجج أحمد بركات و وليد عرفات المنتصرة للنبي كافية، لأنّها حجج قد نقضها ميخائيل يعقوب حجة حجة[16].

---

10 -**نفسه**،راجع ص ص153-157.

11 -**نفسه**،راجع ص169 ،177-176 ،180 ،187 ..

12 –**نفسه**،ص102.

13 -**نفسه**،ص131.

14 -نفسه،ص15.

15 -نفسه،ص135

16 -انظر : *Kitser(M.J) ;**The massacre of Banu Qurayza,a re-examination of a tradition** ;Jerusalem studies in Arabic and Islam(1986).pp61-96.*

لقد قلّب جعيط دواعي حروب استئصال النبي ليهود المدينة، فأقرّ بالدوافع الاقتصادية البيّنة، من قبيل استغلال غلاّت الواحات اليهودية الغنيّة والاستئثار بكنزهم من الذهب والفضة[17]، ولفتَ النظرَ إلى الأغراض السياسية الأكيدة والمتمثّلة في توحيد المدينة دينيا وهو السبيل إلى توحيدها سياسيا[18]، لكنّه يجبّ كل ذلك حين يستدرك أمره في نهاية التحليل ليؤكد على أنّ جميع ما تقدم إنّما هو سياسة موضوعة في خدمة الدين، فـ"الهدف الرئيسي للنبي لم يكن من النسق الاقتصادي، بل كان هدفه سياسيا، للوصول إلى مطامح دينيّة"[19]. ولئن كان ذلك كذلك فإن السؤال المطروح حينئذ لا يتعلق بأولوية الديني على السياسي من عدمه في هذا السياق وإنما يتعلق بالحيرة في تفهّم كون النبي كان أكثر عنفا إزاء اليهود-وهم من أهل التوحيد-منه إزاء المشركين[20].

6 -في علاقة النبي بالبدو:

لقد شكّل البدو-حسب جعيّط-خطرا على مشروع النبي السياسيّ والدينيّ، وتكوين جنين دولة وبناء أمّة منضبطة سياسيا وموحدة دينيا. وانسجاما مع ذلك واتفاقا مع المصادر القديمة، قدّم جعيط عالم البداوة على أنه"عالم الفاقة، الذي يمارس الغزوات لكي يسدّ الرمق. ولا سبيل إلى جعله مسلما، ولا قدرة على ذلك. إذ إن الكلمة الفصل عندهم هي الغنيمة كما ورد في سورة (الأنفال). وبهذه الوسيلة/ أو كما يعتبرها البعض (الحيلة) سعى النبي إلى اجتذابهم للمشاركة في فتح خيبر ثم إلى مرافقته في فتح مكة. لكن هذا كله لم يحدث قبل العام السابع وبالأخص العام الثامن"[21].

الواقع أنّ النبي بقدر ما اجتذب البدو بحبّ المغانم بقدر ما اضطرهم إلى الولاء حفاظا على أرزاقهم وأرواحهم. فليس الطمع وحده الذي حرّكهم، بل الخوف كذلك. ذلك ما تعنيه "السرايا" التي سيّرها النبي ضد البدو منذ العام الثالث للهجرة. وهي سرايا/حروب أطلق عليها جعيط تسمية "حملات" وأبدى إزاءها ترددا كبيرا ثم قبِل بها مداورة. بل إنّه يمكننا القول إنّ المغانم كانت كذلك ضمن حسابات النبي-ولعلها الحساب الوحيد- في هجومه على الكيانات البدوية الصغيرة: بنو سليم، بنو المصطلق، بنو لحيان...وقد علّق جعيط على ذلك بالقول "يبقى السؤال عمّا كان الهدف من تلك الحملات ومعناها. هذا إذا اعتبرناها صحيحة؟ غالبا ما تظهر وكأنها غزوات على الطريقة البدوية، على منوال غزوات الجاهلية، لكنها هذه المرّة بقيادة سلطة عقلانية، وفوق ذلك دينية فاضلة"[22]. ولعل هذه السلطة الدينية كانت المسوّغ لدى جعيط لاستخدام "جحافل مشركة" وهم (البدو) لـ"إخضاع مكة باسم الإسلام"[23]، بل ولاستخدام مشركين من المكيين والبدو لإخضاع "هوازن باسم الإسلام كذلك"[24]. وهي ملامح من تجربة النبي في المدينة لم تثن جعيط عن التأكيد على أولوية الديني على السياسي في تلك التجربة:" لنكرّر أنّ هدف النبي، توجهه، دعوته الأساسية، نواة رسالته لم يكن تأسيس دولة عربية ولا توحيد العرب، بل دعوتهم إلى **الحق** وإنقاذهم من عذاب الله...ولئن لجأ محمد إلى العمل السياسي والحربي، فذلك لأنه يعرف نفسية قومه سواء كانوا قريشا أم الأعراب أم الطائف"[25].

---

17 –جعيط، **نفسه**، راجع الصفحات116-118 ،141 ،149 ،163-166.

18 -**نفسه**،ص159.

19 -**نفسه**،ص164.

20 -راجع: *Lecker(Michael) :**Muslims,Jews,and Pagans** ;studies on early Islamic Medina ;E.J.Brill ;Leiden.New york.Koln1995.*

21 - هشام جعيّط، **نفسه**،ص144.

22 - جعيّط، **نفسه**،ص147.

23 -**نفسه**،ص177.

24 -**نفسه**،ص180.

25 -**نفسه**،ص172.

إنّ هذه النزعة تدفع قارئ الكتاب إلى التساؤل عن الحدود بين الاقتصادي والسياسي من جهة، وبين الديني من جهة ثانية ما دامت "وسائل هذا العالم" جميعها يمكن استخدامها ترسيخا للنبوة المحمدية. ولعل المقارنة بسيرة المسيح في هذا الباب مفيدة، لكن المؤلف يرفض منذ البداية تلك المقارنة[26].

عموما، إنّ المؤلف في هذا الكتاب قد تمكّن -رغم انشغاله بإشكالية الديني والسياسي في عمل النبي-من كتابة سيرة "تستبدل أساطير ومختلقات السيرة (التقليدية) بتاريخ انتقادي حقيقي، أي تاريخ مثبوت للنبي، متحقق في الواقع"[27]. إنها سيرة تفسر الوقائع بالعقل رغم بعض الفجوات التي ظلت بلا تفسير، ورغم بعض الآراء التي مالت إلى التبرير ونحن ندرس الجزء الثالث من كتابات جعيط تبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ما الذي جعل جعيط يعيد قراءة مشروع السيرة النبويّة؟ وربّما خير إجابة أنّ مؤلفات جعيط الّتي ختمها بكتاب **محمّد في المدينة** هي كتب طرحت تجديد منهج كتابة السيرة لا من أجل الرد على المستشرقين، بل من أجل وصول أعمق للحقيقة التاريخية؛ هذا لأنه يرى أنّ الاتهامات الاستشراقية نابعة من جذور غير معرفية تكفّل بفضحها.

فقد قام بنقد مصادر السّيرة التقليدية معتمدًا على القرآن تارة وعلى العقل ومنطق التأريخ وعلوم الأديان تارة أخرى، لكن هذا النقد كان بهدف البحث عن نواة تاريخية صلبة لسيرة النبي، لا بهدف دفع اتهامات المستشرقين بالتخلّص من مصدر اتهاماتهم؛ حيث لاتهامات المستشرقين عند جعيط جذورٌ غير معرفية كامنة في المتخيل الموروث من العصور الوسطى عن النبي، هذه الجذور تجعل تعاملهم مع المصادر التقليدية تعاملًا انتقائيًا كثيرًا ما يفتقر في رأيه لحس نقدي.

خـــاتمة:

لعلّ أهمّ ما يخرج به الباحث بعد قراءة هذا الكتاب والّذي كما ذكرن هو تكملة لمشروع في دراسة السيرة النبويّة .

إنّ هذه الدراسة لم تكن على نفس مستوى الخطّ التمجيديّ الّذي كثيرا ما طرق باب السيرة ظنّا ممّن كتبوا فيه أنّهم سيحرّرونها ويخرجونها من الخرافة والأسطورة والمبالغة إلى تنقيتها وجعلها في كتب علميّة أكاديميّة، لكن مع الأسف ما وعدوا به القارئ بقي حبر على ورق.

في هذا الكتاب وصل جعيط إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ نبيّ له كاريزما الّتي يستشعرها من خلال الرسالة المكلّف بتبلّيغها. وهي نتيجة لها وزنها لأنّها تثبت رعاية الله لنبيّه وأنّ ما أتى به من وحي لا هو بسجع الكهّان ولا كلام شعراء بل هو وحيٌ يوحى.

ولعلّ ما يمكن أن نعتبره إنجاز أنجزه المؤرّخ جعيط هو فصله بين المجال السياسي للنّبيّ والجانب الدعوي، فقد أقرّ بأنّ كلّ ما قام به النبيّ من سرايا وغزوات هو من أجل خدمة الجانب الدعوي ونشر الرسالة في شبه الجزيرة العربيّة وخارجها لا من أجل حبّ السيطرة وكسب النفوذ. ويعتبر جعيط أنّ النبيّ قد سعى إلى تكوين أمّة إسلاميّة وأنه لم يكن ثمة دولة مع النبي، بل فقط جنين دولة، كوّنها جماعة مؤمنين تحت إمرة نبوة شخصيّة وكاريزماتية يمثلها نبي يؤدي جميع الأدوار بجهوزية تامة. خاصّة في محاربته وإجلائه لليهوديين عندما نكصوا العهد الّذي أبرمه النبيّ معهم في صحيفة المدينة. لذلك عدّ جعيط هذا الإخراج والتنكيل باليهود هو أمر حتميّ ولا بدّ أن يكون حتى يتسنّى نشر الدّين الإسلامي على أوسع نطاق.

وصل جعيط من خلال كتابه هذا إلى الردّ عن المتبنين لفكرة الإسلام السياسي والّتي يرى البعض أنّها ظهرت في الفترة النبويّة وخاصّة في عزواته وإخضاعه لبعض القبائل لدخولها في الإسلام. لكن كما سبق وذكرنا أنّ لغة الحرب قد أُجبر النبيّ على استعمالها لأنّه مع مجتمعات وقبائل تأبى لغة اللّين والرفق ولا تفهم إلاّ لغة الحرب والسيف. لذلك خاطبهم بما يفقهون.

---

[26] –**نفسه**،ص10.

[27] –**نفسه**،ص133.

الهوامش:

1-جعيط(هشام)، **مسيرة محمد في المدينة و انتصار الإسلام**،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت.ط1، 2015.

2-حوار مع المفكّر والمؤرّخ هشام جعيط ، أجراه: علاقي محمّد ، يوم 2016/4/30، **مجلّة علامات، عدد 46**، عن دار الثقافة المغربيّة، الصادرة سنة 2016.

3-مونتغمري، وات، **محمد النبي ورجل الدولة**، ترجمة: حمود حمود، دار التكوين، دمشق، .2014.

نولدكه (تيودور)، ***تاريخ القرآن***، تعديل فرديريش شفالي، ترجمة جورج تامر، ط1 بيروت 2004.

4-Kitser(M.J) ;**The massacre of Banu Qurayza,a re-examination of a tradition** ;Jerusalem studies in Arabic and Islam(1986).. .

5-Lecker(Michael) :**Muslims,Jews,and Pagans** ;studies on early Islamic Medina ;E.J.Brill ;Leiden.New york.Koln1995.